

تفسير ابن كثير

يقول تبارك وتعالى ناهيا عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة أي يطلعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم والمنافقون بجهدهم وطاقاتهم لا يألون المؤمنين خبالا أي يسعون في مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن وبما يستطيعون من المكر والخديعة ويودون ما يعنت المؤمنين ويخرجهم ويشق عليهم وقوله تعالى : { لا تتخذوا بطانة من دونكم } أي من غيركم من أهل الأديان وبطانة الرجل هم خاصة أهله الذين يطلعون على داخله أمره وقد روى البخاري والنسائي وغيرهما من حديث جماعة منهم يونس ويحيى بن سعيد وموسى بن عقبة وابن أبي عتيق عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال [ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه والمعصوم من عصم الله] وقد رواه الأوزاعي ومعاوية بن سلام عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعا بنحوه فيحتمل أنه عند الزهري عن أبي سلمة عنهما وأخرجه النسائي عن الزهري أيضا وعلقه البخاري في صحيحه فقال : وقال عبيد الله بن أبي جعفر عن صفوان بن سليم عن أبي سلمة عن أبي أيوب الأنصاري فذكره فيحتمل أنه عند أبي سلمة عن ثلاثة من الصحابة والله أعلم وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا أبو أيوب محمد بن الوزان حدثنا عيسى بن يونس عن أبي حيان التيمي عن أبي الزنباغ عن ابن أبي الدهقانة قال : قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن ههنا غلاما من أهل الحيرة حافظ كاتب فلو اتخذته كاتباً فقال : قد اتخذت إذا بطانة من دون المؤمنين ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين وإطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب ولهذا قال تعالى : { لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم } وقد قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا إسحاق بن إسرائيل حدثنا هشيم حدثنا العوام عن الأزهر بن راشد قال : كانوا يأتون أنسا فإذا حدثهم بحدِيث لا يدرون ما هو أتوا الحسن يعني البصري فيفسره لهم قال : فحدث ذات يوم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال [لا تستضيئوا بنار المشركين ولا تنقشوا في خواتيمكم عربيا] فلم يدروا ما هو فأتوا الحسن فقالوا له : إن أنسا حدثنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال [لا تستضيئوا بنار المشركين ولا تنقشوا في خواتيمكم عربيا] فقال الحسن : أما قوله [لا تنقشوا في خواتيمكم عربيا] : محمد صلى الله عليه وسلم وأما قوله [لا تستضيئوا بنار المشركين] يقول : لا تستشيروا المشركين في أموركم ثم قال الحسن : تصديق ذلك في كتاب الله { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم } هكذا رواه الحافظ أبو يعلى C تعالى وقد رواه النسائي

عن مجاهد بن موسى عن هشيم ورواه الإمام أحمد عن هشيم بإسناده مثله في غير ذكر تفسير الحسن البصري وهذا التفسير فيه نظر ومعناه ظاهر [لا تنقشوا في خواتيمكم عربيا] أي بخط عربي لئلا يشابه نفس خاتم النبي صلى الله عليه وسلم فإنه كان نقشه محمد رسول الله ولهذا جاء في الحديث الصحيح أنه نهى أن ينقش أحد على نقشه وأما الاستضاءة بنار المشركين فمعناه لا تقاربوهم في المنازل بحيث تكونون معهم في بلادهم بل تباعدوا منهم وهاجروا من بلادهم ولهذا روى أبو داود [لا تتراءى ناراهما] وفي الحديث الآخر [من جامع المشرك أو سكن معه فهو مثله] فحمل الحديث على ما قاله الحسن C والاستشهاد عليه بالآية فيه نظر والله أعلم .

ثم قال تعالى : { قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر } أي قد لاح على صفحات وجوههم وقلوبهم من العداوة مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل ولهذا قال تعالى : { قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون } وقوله تعالى : { ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم } أي أنتم أيها المؤمنون تحبون المنافقين بما يظهرونه لكم من الإيمان فتحبونهم على ذلك وهم لا يحبونكم لا باطنا ولا ظاهرا { وتؤمنون بالكتاب كله } أي ليس عندكم في شيء منه شك ولا ريب وهم عندهم الشك والريب والحيرة وقال محمد بن إسحاق : حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس { وتؤمنون بالكتاب كله } أي بكتابكم وكتابهم وبما مضى من الكتب قبل ذلك وهم يكفرون بكتابكم فأنتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم رواه ابن جرير { وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ } والأنامل أطراف الأصابع قاله قتادة وقال الشاعر :

(أود كما ما بل حلقي ريقتي ... وما حملت كفاي أنملي العشرا) .

وقال ابن مسعود والسدي والربيع بن أنس : الأنامل الأصابع وهذا شأن المنافقين يظهرون للمؤمنين الإيمان والمودة وهم في الباطن بخلاف ذلك من كل وجه كما قال تعالى : { وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ } وذلك أشد الغيظ والحنق قال الله تعالى : { قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور } أي مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ويغيظكم ذلك منهم فاعلموا أن الله عليم بذات الصدور ومكمل دينه ومعل كلمته ومظهر دينه فموتوا بغيظكم { إن الله عليم بذات الصدور } أي هو عليم بما تنطوي عليه ضمائرهم وتكنه سرائرهم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ما تؤملون وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها لا محيد لكم عنها ولا خروج لكم منها ثم قال تعالى : { إن تمسكم حسنة تسؤهم وإن تصيكم سيئة يفرحوا بها } وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين وهو أنه إذا أصاب المؤمن خصب ونصر

وتأييد وكثروا وعز أنصارهم ساء ذلك المنافقين وإن أصاب المسلمين سنة أي جذب أو أدبيل عليهم الأعداء لما ﷻ تعالى في ذلك من الحكمة – كما جرى يوم أحد – فرح المنافقون بذلك قال ﷻ تعالى مخاطباً للمؤمنين { وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً } الآية يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار باستعمال الصبر والتقوى والتوكل على ﷻ الذي هو محيط بأعدائهم فلا حول ولا قوة لهم إلا به وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته ومن توكل عليه كفاه .
ثم شرع تعالى في ذكر قصة أحد وما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين والتميز بين المؤمنين والمنافقين وبيان صبر الصابرين فقال تعالى :